كلمة الحياة

آذار/ مارس 2024

"قَلبًا طاهِرًا اْخلُقْ فيَّ يا أللهّ ورُوحًا ثابِتًا جَدِّد في باطِني" (مز 51[50]، 12)

الآية من الكتاب المقدّس المقترَحة علينا في زمن الصوم هذا هي جزء من المزمور 51 وهي الآية 12 التي تعبّر عن دعاء مثير للمشاعر ومتواضع: "قَلبًا طاهِرًا اْخلُقْ فيَّ يا أللهّ ورُوحًا ثابِتًا جَدِّد في باطِني". هذا النصّ معروف بنشيد "Miserere" (ارحمني يا أللهّ). فيه تبدأ نظرةُ كاتب المزمور باستكشاف خبايا النفس البشريّة التي تُدرِك أنّها ليست أهلاً لأن تمثُلَ أمام الله، وفي الوقت عينه، تشعر بعطشها الدائم للشَرِكة الكاملة مع الذي تنبع منه كلُّ نعمة وكلُّ رحمة.

"قَلبًا طاهِرًا اْخلُقْ فيَّ يا أللهّ ورُوحًا ثابِتًا جَدِّد في باطِني"

يستوحي المزمور فكرتَه من حدث شهير من حياة داود. فداود المدعوّ من الله كي يعتنيَ بشعب إسرائيل ويُرشدَه في طريق الطاعة للعهد، يُخِلُّ برسالته. ها هو بعد أن ضاجع 'بَتشابع' جعل زوجَها أوريّا الحِثّيّ، وهو ضابط في جيشه، يُقتَل في المعركة. فكشف له النبيّ ناتان خطورةَ إثمِه وساعدَه على الإقرار به. هذه هي لحظة الاعتراف بخطيئته والمصالحة مع الله.

"قَلبًا طاهِرًا اْخلُقْ فيَّ يا أللهّ ورُوحًا ثابِتًا جَدِّد في باطِني"

يضع كاتب المزمور على فم الملك دعاء قويًّا جدًّا ينبع من توبته العميقة ومن ثقته الكاملة بالغفران الإلهيّ إذ يقول: "امحُ جميع آثامي"، "اغسِلني"، "طهِّرني". ويستخدم في الآية التي تهمّنا بشكل خاصّ الفعل "أُخلُق" ليشيرَ إلى أنّ الله وحدَه يستطيع أن يحرّرَ الإنسان كلّيًّا من هشاشتِه وضعفِه. إنّه الإدراك والوعي بأنّ الله وحدَه قادر على جعلنا مخلوقات جديدة لديها "قلب طاهر"، غامِرًا إيّانا بروحه المُحيي، ومُغدِقًا علينا بالفرح الحقيقيّ، ومحوِّلاً بشكل جذريّ علاقتَنا بالله ("الروح الثابت فينا") وبسائر الكائنات الحيّة، وبالطبيعة، والكون.

"قَلبًا طاهِرًا اْخلُقْ فيَّ يا أللهّ ورُوحًا ثابِتًا جَدِّد في باطِني"

كيف نطبّق كلمة الحياة هذه؟ خطوتنا الأولى تتمثّل بأن نعترف بأنّنا خطأة ومحتاجون إلى غفران الله، فيما نثق به ثقة لا حدود لها.

قد يحدث أن تُفقِدَنا أخطاؤنا المتكرّرة الشجاعة وتجعلُنا ننغلق على أنفسنا. المطلوب عندها هو أن نتركَ بابَ قلبِنا مفتوحًا ولو قليلاً. كتبَت كيارا لوبيك في أوائل سنة 1940 إلى شخص كان يشعر بأنّه غير قادر على تخطّي ضعفِه وبؤسِه: "عليك أن تُبعِد عن قلبِك كلّ فكرة مغايرة وأن تثِقَ بأنّ يسوع ينجذب إلينا عندما نعرض خطايانا بشكل متواضع وواثق ومُحِبّ. فنحن، من تلقاءِ أنفسنا، لا نملك ولا نفعل سوى البؤس والآثام. أمّا هو، فيقابلُنا بميزة واحدة لا غير: إنّها الرحمة. فنفسُنا لا تتّحد به حين تقدّم له فضائلَها، بل خطاياها! [...] إذا أتى يسوع إلى الأرض، وصار إنسانًا، وتاق إلى أمر ما [...] فهذا الأمر هو أن يكون المخلِّص ليس إلّا، الطبيب. فهو لا يرغب بأيّ شيء آخر[1]."

"قَلبًا طاهِرًا اْخلُقْ فيَّ يا أللهُ ورُوحًا ثابِتًا جَدِّد في باطِني"

وبعد أن نكون قد تحرّرنا ونلنا الغفران، وباعتمادنا على مساعدة الإخوة لنا، لأنّ قوّة المسيحيّ تأتي من الجماعة، يمكننا أن ننطلق لنحبّ بشكل ملموس وعمليّ قريبَنا أيًّا كان. "المطلوب منّا هو تلك المحبّة المتبادلة، التي تخدم وتتفهّم وتتشارك آلام الإخوة وهمومَهم وأفراحَهم؛ تلك المحبّة التي تستر كلّ شيء، وتغفر كلّ شيء، تلك المحبّة التي تميّز الإنسان المسيحيّ"[2]. يقول البابا فرنسيس: "إنّ غفرانَ الله [...] هو أكبر علامة على رحمته. هو عطيّة، وكلّ من نالها مدعوّ لأن يشاركَها مع كلّ الإخوة والأخوات الذين يلتقي بهم؛ مع كلّ الذين وضعهم الله بجانبنا، الأهل، الأصدقاء، الزملاء، أبناء الرعيّة... كلُّهم مِثلُنا بحاجة إلى رحمة الله. كم هو جميل أن يُغفَر لنا، ولكن أنتَ أيضًا، إذا أردتَ أن يُغفَرَ لك، فاغفِر بدورك. اغفِر! [...] لكي تكون شاهدًا لغفرانِه الذي يطهّر القلب ويغيّر الحياة"[3].

إعداد أغوستو پارودي رايس ولجنة كلمة الحياة

---

[1] كيارا لوبيك، رسائل 1960/1943، إعداد ف. جبياه، المدينة الجديدة الإيطاليّة، روما 2022، ص350.

[2] كيارا لوبيك، كلمة حياة شهر أيّار/ مايو 2002.

[3] البابا فرنسيس، الرحمة تمحو الخطيئة، المقابلة العامّة، 30 آذار/ مارس 2016.